وظائف العبيد والإماء أمام الفتن والبلاء (٧)

حسن الظن بالناس

عباد الله ما زلنا مع وظائف العبيد والإماء أمام الفتن والبلاء، وقد تكلمنا في الخطب الماضية عن آثار المعاصي وكيف نتخلص منها، وعن التوبة، وعن حسن الظن بالله، واليوم بإذن الله نتكلم عن حسن الظن بالناس.

فإن الواجب على المؤمن أن يحسن الظن بأخيه المؤمن ويحمل أقواله وأفعاله على أحسن المحامل ما استطاع إلى ذلك سبيلا؛ لقول النبي ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ**»[1]، فلا يظن فيه إلا خيرا إن ظهر منه تقصير أو تفريط بحقه، ولا يظن به سوءا.

والمحرم من الظن ما يستمر صاحبه عليه ويستقر في قلبه، وذلك دون الظن الذي يعرض في القلب ولا يستقر، أما إذا كان ظاهر حاله الفسق، والمجاهرة بالفواحش، والتخلف عن الفرائض، ومصاحبة الأشرار، أو إظهار البدع، فالمشروع في حقه سوء الظن وأخذ الحذر منه، ولا يليق أن يظن به خيرا؛ لأنه ليس أهلا لذلك، ولذلك قال النبي ﷺ عن رجلين من المنافقين: «**مَا أَظُنُّ فُلَانًا وَفُلَانًا يَعْرِفَانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا**»[2]، وقال ابن هبيرة الوزير: «**لَا يَحِلُّ وَاَللَّهِ أَنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِمَنْ تَرْفُضُ وَلَا بِمَنْ يُخَالِفُ الشَّرْعَ فِي حَالٍ**»[3].

إن إحسان الظن بالناس يحتاج إلى كثير من مجاهدة النفس لحملها على ذلك خاصة، وأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، ولا يكاد يفتر عن التفريق بين المؤمنين والتحريش بينهم، وأعظم أسباب قطع الطريق على الشيطان هو إحسان الظن بالمسلمين.

ولقد نهى النبي ﷺ عن تتبع أمور الناس وعوراتهم؛ حرصا منه ﷺ على شغل المسلم نفسه بالخير، وعدم الوقوع فيما لا يغني من الله شيئا، فقال: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ؛ يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ؛ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ**»[4]، قال الشافعي رحمه الله:

لِسَانَكَ لا تَذْكُرْ بِهِ عَورَةَ امرئ ... فَكلُّكَ عَــوْرَاتٌ وَلِلنَّــاسِ أَلْسُــــنُ

وَعَــينكَ إنْ أَبْــدَتْ إَليكَ مَعَــايِبًا ... فَصُنْهَا وَقُلْ: يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُنُ

من الأسباب المعينة على حسن الظن:

١. **إنزال النفس منزلة الخير**: قال ابن القيم رحمه الله: «**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ أَجْمَعَ لِهَذِهِ الْخِصَالِ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ –قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ– وَكَانَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ الْأَكَابِرِ يَقُولُ: وَدِدْتُ أَنِّي لِأَصْحَابِي مِثْلُهُ لِأَعْدَائِهِ وَخُصُومِهِ!! وَمَا رَأَيْتُهُ يَدْعُو عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ قَطُّ، وَكَانَ يَدْعُو لَهُمْ، وَجِئْتُ يَوْمًا مُبَشِّرًا لَهُ بِمَوْتِ أَكْبَرِ أَعْدَائِهِ، وَأَشَدِّهِمْ عَدَاوَةً**

---

[1] رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (٥١٤٣)، ورواه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٥٦٣).

[2] رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٠٦٧).

[3] الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/٤٥)، لشمس الدين ابن مفلح رحمه الله.

[4] أخرجه الإمام أبو داود في سننه (٤٨٨٠)، وقال الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الإمام أبي داود (٤٨٨٠): حسن صحيح.

وَأَذًى لَهُ، فَنَهَرَنِي وَتَنَكَّرَ لِي وَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ قَامَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى بَيْتِ أَهْلِهِ فَعَزَّاهُمْ، وَقَالَ: إِنِّي لَكُمْ مَكَانَهُ، وَلَا يَكُونُ لَكُمْ أَمْرٌ تَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى مُسَاعَدَةٍ إِلَّا وَسَاعَدْتُكُمْ فِيهِ، وَنَحْوَ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ، فَسُرُّوا بِهِ وَدَعَوْا لَهُ، وَعَظَّمُوا هَذِهِ الْحَالَ مِنْهُ، فَرَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ»[1].

٢.**حمل الكلام على أحسن المحامل:** فها هو الإمام الشافعي رحمه الله حين مرض وأتاه الربيع بن سليمان يعوده، فقال للشافعي: «**دَخَلْتُ عَلَى الشَّافِعِيِّ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقُلْتُ لَهُ: قَوَّى اللَّهُ ضَعْفَكَ، فَقَالَ: لَوْ قَوَّى ضَعْفِي قَتَلَنِي، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ، مَا أَرَدْتُ إِلا الْخَيْرَ، قَالَ: أَعْلَمُ أَنَّكَ لَوْ شَتَمْتَنِي لَمْ تُرِدْ إِلا الْخَيْرَ**»[2]، فهكذا تكون الأخوة الحقيقية إحسان الظن بالإخوان حتى فيما يظهر أنه لا يحتمل وجها من أوجه الخير.

٣.**التماس الأعذار للآخرين:** قال ابن سيرين رحمه الله: «**إِذَا بَلَغَكَ عَنْ أَخِيكَ شَيْءٌ، فَالْتَمِسْ لَهُ عُذْرًا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ عُذْرًا، فَقُلْ: لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا**»[3]، قال جعفر بن محمد: «**إِذَا بَلَغَكَ عَنْ أَخِيكَ الشَّيْءُ تُنْكِرُهُ؛ فَالْتَمِسْ لَهُ عُذْرًا وَاحِدًا إِلَى سَبْعِينَ عُذْرًا، فَإِنْ أَصَبْتَهُ وَإِلَّا قُلْ: لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا لَا أَعْرِفُهُ**»[4].

٤.**تجنب الحكم على النيات:** عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ قال: «**سَمِعْتُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنهما يُحَدِّثُ، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، قَالَ: فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، قَالَ: وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِينَاهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا، بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ " قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ، حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ**»[5].

٥.**استحضار آفات سوء الظن وعدم تزكية النفس:** قَالَ سُفْيَانُ بْنُ حُسَيْنٍ: «**ذَكَرْتُ رَجُلًا بِسُوءٍ عِنْدَ إِيَاسِ ابْنِ مُعَاوِيَةَ فَنَظَرَ فِي وَجْهِي وَقَالَ: أَغَزَوْتَ الرُّومَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَالسِّنْدَ، وَالْهِنْدَ، وَالتُّرْكَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: أَفَسَلِمَ مِنْكَ الرُّومُ، وَالسِّنْدُ، وَالْهِنْدُ، وَالتُّرْكُ وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْكَ أَخُوكَ الْمُسْلِمُ؟! قَالَ: فَلَمْ أَعُدْ بَعْدَهَا**»[6]، وقال أبو حاتم ابن حبان البستي رحمه الله: «**الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عَن عيوب الناس مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه، فإن من اشتغل بعيوبه عَن عيوب غيره؛ أراح بدنه، ولم يتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عَلَيْهِ مَا يرى مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عَن عيوب نفسه؛ عمي قلبه وتعب بدنه وتعذر عَلَيْهِ ترك عيوب نفسه**»[7].

---

[1] مدارج السالكين (٣٢٩/٢)، للإمام ابن القيم رحمه الله.

[2] آداب الشافعي ومناقبه (٢٠٩/١)، للحافظ ابن أبي حاتم الرازي رحمه الله.

[3] التوبيخ والتنبي (٥٣/١)، للحافظ أبي الشيخ الأصبهاني رحمه الله.

[4] شعب الإيمان (٥٥٩/١٠)، للإمام البيهقي رحمه الله.

[5] رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٨٧٢)، ورواه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه (٩٦).

[6] البداية والنهاية (٢١/١٣)، للحافظ ابن كثير رحمه الله.

[7] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (١٢٥/١)، للإمام ابن حبان رحمه الله.

ومن أسباب سوء الظن:

- **التسرع:**

– يقول شخص يدعى ستيفن كوفي: كنت في صباح يوم أحد الايام في قطار الأنفاق بمدينة نيويورك، وكان الركاب جالسين في سكينة، بعضهم يقرأ الصحف، وبعضهم مستغرق بالتفكير، وآخرون في حالة استرخاء، كان الجو ساكنًا مفعمًا بالهدوء، وفجأة صعد رجل بصحبة أطفاله الذين سرعان ما ملأ ضجيجهم وهرجهم عربة القطار، جلس الرجل إلى جانبي وأغلق عينيه غافلًا عن الموقف كله، كان الأطفال يتبادلون الصياح ويتقاذفون بالأشياء، بل ويجذبون الصحف من الركاب وكان الأمر مثيرًا للإزعاج، ورغم ذلك استمر الرجل في جلسته إلى جواري دون أن يحرك ساكنًا؟! لم أكن أصدق أن يكون على هذا القدر من التبلد والسماح لأبنائه بالركض هكذا دون أن يفعل شيئًا!! يقول: بعد أن نفد صبري التفتُّ إلى الرجل قائلًا: إن أطفالك يا سيدي يسببون إزعاجا للكثير من الناس، وإني لأعجب إن لم تستطع أن تكبح جماحهم أكثر من ذلك!!! إنك عديم الإحساس، فتح الرجل عينيه، كما لو كان يعي الموقف للمرة الأولى وقال بلطف، نعم إنك على حق، يبدو أنه يتعين علي أن أفعل شيئًا إزاء هذا الأمر، لقد قدمنا لتونا من المستشفى حيث لفظت والدتهم أنفاسها الأخيرة منذ ساعة واحدة، إنني عاجز عن التفكير، وأظن أنهم لا يدرون كيف يواجهون الموقف أيضًا، يقول (كوفي): تخيلوا شعوري آنئذ؟؟ فجأة امتلأ قلبي بآلام الرجل وتدفقت مشاعر التعاطف والتراحم دون قيود، قلت له: هل ماتت زوجتك للتو؟ إنني آسف، هل يمكنني المساعدة؟؟ لقد تغير كل شيء في لحظة!!!

– **يُحكى أن رجُلًا عجوزًا كان جالسًا مع ابن له يبلغ من العُمر ٢٥ سنة** في القطار، وبدا الكثير من البهجة والفضول على وجه الشاب الذي كان يجلس بِجانب النافذة، أخرج يديه من النافذة وشعر بِمرور الهواء وصرخ: أبي، انظر! جميع الأشجار تسير وراءنا! فتبسم الرجل العجوز مع فرحة ابنه، وكان يجلس بِجانبهما زوجان يستمعان إلى ما يدور من حديث بين الأب وابنه، وشعروا بقليل من الإحراج، فكيف يتصرف شاب في عُمر ٢٥ سنة كالطفل؟! فجأةً صرخ الشاب مرة أخرى: أبي، انظر إلى البركة وما فيها من حيوانات، انظر! الغيوم تسير مع القطار واستمر تعجب الزوجين من حديث الشاب مرةً أخرى، ثم بدأ هطول الأمطار، وقطرات الماء تتساقط على يد الشاب الذي امتلأ وجهه بِالسعادة وصرخ مرةً أخرى: أبي، إنها تمطر، والماء لمس يدي، انظر يا أبي، وفي هذه اللحظة لم يستطع الزوجان السكوت وسألا الرجل العجوز: لماذا لا تقوم بزيارة الطبيب والحصول على علاج لِابنك؟ هنا قال العجوز: إننا قادمون من المستشفى حيث أن ابني قد أصبح بصيرا لأول مرةٍ في حياته!!!

- **وقد يكون سوء الظن ناتج عن خلفية سابقة عندك:**

– يقول أحدهم: قبل بضعة أعوام قررت السفر إلى إيطاليا ومشاهدة أعظم آثار روما والبندقية، وكعادتي –قبل كل رحلة– قرأت أدلة وكتبا سياحية كثيرة عن هاتين المدينتين بالذات، ولفت انتباهي حينها كثرة التحذير من التجول في الشوارع المحيطة بمحطة القطار الرئيسية في روما (وتدعى تيرميني)، وذات يوم كان علي الذهاب لتلك المحطة

بالذات لتصديق تذكرة القطار الأوروبي، وفور نزولي من التاكسي فوجئت بشاب غريب الهيئة ينادي علي بلغة لا أفهمها، غير أنني تجاهلته وأسرعت الخطى نحو المحطة، ولكنه استمر في السير خلفي والصراخ عليّ بصوت مرتفع، فما كان مني إلا أن هرولت ثم جريت، فجرى خلفي مناديا بحدة حتى اضطررت للتوقف ومعرفة ماذا يريد، وحين وقف أمامي مباشرة أخذ يتحدث بعصبية وصوت غاضب -وكأنه يلومني على تجاهله- في حين كان يريد إعطائي محفظتي التي سقطت فور نزولي من التاكسي.

- ونشرت مجلة الريدر دايجست قصة طريفة عن دبلوماسي أمريكي تلقى دعوة لحضور مؤتمر دولي في موسكو في وقت كانت فيه حرب الجواسيس على أشدها، وقبل مغادرته مطار نيويورك حذرته وزارة الخارجية بأن الروس سيتجسسون عليه وسيضعونه في فندق خاص بالأجانب يمتلئ بأجهزة التنصت، وهكذا ما أن دخل غرفته في الفندق حتى بدأ يبحث عن أجهزة التنصت المزعومة والميكروفونات المدسوسة خلف اللوحات، وفوق اللمبات، وداخل الكراسي بل وحتى داخل التليفون نفسه، وحين كاد ييأس نظر تحت السرير فلاحظ وجود سلكين معدنيين مجدولين حول بعضهما البعض يبرزان من أرضية الغرفة الخشبية فأيقن أنه عثر على ضالته، فما كان منه إلا أن أحضر كماشة قوية وبدأ بفك الأسلاك عن بعضها البعض ثم قطعها نهائيا قبل أن يصعد على سريره لينام، غير أنه سرعان ما سمع صفارة الإسعاف، وأصوات استنجاد، وصراخ من الطابق السفلي، فرفع السماعة ليسأل عما حدث، فأجابه الموظف في مكتب الاستقبال: لا تقلق يا سيدي؛ سقطت النجفة المعلقة أسفل غرفتك على رأس المندوب البلجيكي.

- **أو يكون سوء الظن بسبب الفهم الخاطئ:**

وحكي أن صبيا يبلغ من العُمر ١٠ سنوات دخل إلى مقهى، وجلس على الطاولة، فَوضعت الجرسونة كأسًا من الماء أمامه، فسأل الصبي: بكم الآيس كريم بِالتشوكلت؟ أجابته : بِخمس دولارات، فَأخرج الصبي يده من جيبه، وأخذ يعدّ النقود، فَسألها مرة أُخرى: حسنًا وبكم الآيس كريم لوحده فقط بدون التشوكلت؟ في هذه الأثناء كان هُناك الكثير من الزبائن ينتظرون خلّو طاولة في المقهى لِلجلوس عليها! فبدأ صبر الجرسونة بِالنفاذ، فَأجابته بفظاظة: بِأربع دولارات! فعدّ الصبّي نقوده وقال: سآخذ الأيس كريم بدون التشوكلت، فَأحضرت الجرسونة له الطلب، ووضعت فاتورة الحساب على الطاولة وذهبت، أنهى الصبّي الأيس كريم ودفع حساب الفاتورة وغادر المقهى، وعندما عادت الجرسونة إلى الطاولة، اغرورقت عيناها بِالدموع أثناء مسحها لِلطاولة! حيث وجدت بِجانب الطبق الفارغ دولار واحد، حرم الصبّي نفسه الآيس كريم بِالتشوكلت، حتى يوفّر دولارًا يُكرم به الجرسونة.

- **أو يكون سوء الظن بسبب عدم التركيز:**

حكي أن سيدة شابة كانت تنتظر طائرتها في مطار دولي كبير، ولأنها كانت ستنتظر كثيرا اشترت كتابا لتقرأ فيه واشترت أيضا علبة بسكويت، بدأت تقرأ كتابها أثناء انتظارها لطائرتها، وكان يجلس بجوارها رجل يقرأ في كتابه، وعندما بدأت في أكل أول قطعة بسكويت التي كانت موضوعة علي الكرسي بينها وبين الرجل؛ فوجئت أن الرجل بدأ في أكل قطعة بسكويت من نفس العلبة التي تأكل منها، بدأت تفكر بعصبية في أن تلكمه لكمة في وجهة لقلة

ذوقه، كل قضمة كانت تأكلها من قطعة البسكويت كان الرجل يأكل قضمة أيضا، زادت عصبيتها لكنها كتمت في نفسها، عندما بقيت قطعة واحدة في علبة البسكويت نظرت إليها وقالت: ماذا سيفعل هذا الرجل قليل الذوق الآن؟ زادت دهشتها عندما قسم الرجل قطعة البسكويت الأخيرة الي نصفين ثم أكل النصف وترك لها النصف الآخر، قالت لنفسها: هذا لا يحتمل، فأخذت كتابها وبأعلى صوتها قالت له أمام المسافرين: "أنت قليل الذوق"، وذهبت للصعود إلى الطائرة، عندما جلست في مقعدها بالطائرة فتحت حقيبتها لتأخذ نظارتها ففوجئت بعلبة البسكويت الخاصة كما هي مغلفة بالحقيبة !!!!! صدمت وشعرت بالخجل الشديد، وأدركت فقط الآن بأن علبتها كانت في شنطتها وأنها كانت تأكل مع الرجل من علبته هو، أدركت متأخرة بأن الرجل كان كريما معها وقاسمها في علبة البسكويت الخاصة به بدون أن يتذمر، بينما هي أهانته أمام الناس، فكرت كيف لها أن تعتذر له وهي لن تراه مره ثانية، شعرت حينها بالخجل من نفسها.

- **أو يكون سوء الظن بسبب فقدان بعض الناس لبعض الصفات النبيلة:**

يحكى أن رجلا مرضت ابنته و لم يعرف ما بها، وعندما ذهب بها إلى المستشفى كتب له الأطباء العديد من الأدوية التي لم يقدر على ثمنها، فاتصل بأخيه على الهاتف المحمول وطلب منه أن يحضر له مائتي دولار في البيت للضرورة بسبب مرض ابنته، فأجاب الأخ طلبه قائلا: أعطني من الوقت ساعة لأحضر لك المال، و بينما الأب ينتظر وصول أخيه حاول الاتصال به مرة أخرى ليتأكد من حضوره، و لكنه تفاجأ عندما وجد الهاتف مغلقا، حاول مرة أخرى لكن النتيجة لم تتغير، أخذ يحدث نفسه: كيف يخذلني أخي ويتهرب مني؟! لن أسامحه على فعلته، وبينما هو فى قمة الحزن والأسى من موقف أخيه دق جرس الباب، فتح الباب والغضب يسيطر عليه فوجد أخاه على الباب، أخذ الأخ المال قائلا: أعتذر على تأخري فلم أستطع بيع هاتفي المحمول بالسرعة التي توقعتها، و لم ألحق أن أشتري هاتفا رخيصًا بدلًا منه.

- **عدم التحري:**

يحكى أن السلطان العثماني بيازيد رأى هاتفًا (داعيا) في المنام فانتفض من مرقده، وأمر أمين سرّه أن يجهز بعض النفر كي يذهبوا جميعًا إلى مكان ما دون أن يسأله عن الأسباب، ولكن أعلمه أن هاتفًا جاءه في المنام، قصد السلطان وصاحبه والحاشية متنكرين المكان المقصود على حسب ما جاء في المنام، ولدى وصولهم إليه وجدوا أنه حي سكني من ذوي الحال الميسور، ورأوا لفيفا من الناس مجتمعين حول شخص ميت للتو، فسألهم السلطان: ما الأمر؟ فأجابوه أن هذا شخص يعمل في حيهم منذ مدة طويلة، وكان مثال الجد والتفاني في عمله كنعّال لحوافر الخيل، وكان يحصّل الأجر الوفير من عمله، فسألهم: لماذا لا تدفنوه إذًا؟ فقالوا: إننا لا نعلم أين يسكن ولا من أين يأتي كل يوم، ثم إنه رغم جدّه في عمله كان منبوذًا من كل أهل الحي؛ لأنه كان بعد انتهاء عمله يشاهد حاملًا زجاجات الخمر ومصاحبًا لبنات الهوى، لذلك حين توفي أقسمنا أن نتركه هكذا دون دفن، فأشار عليهم السلطان أن يخلّصهم من جثته؛ فوافقوا، حمل النفر الجثة وساروا بها، فهمس السلطان في أذن أمين سره أن يدفنه في باحة مسجده (المشهور

حتى يومنا هذا في اسطنبول) حسب ما جاءه في الحلم؛ فحاول أمين السر أن يعترض مفسرًا له يا سيدي السلطان بعد العمر الطويل ستدفن في ذلك المكان، ولا يصح أبدًا أن يكون قبرك مجاورًا لقبر ميت كهذا، فقطع عليه الطريق وأمره أن ينفذ دونما اعتراض، ودفن الرجل في مسجد بيازيد، بقي السلطان حائرًا في أمره وقضّ عليه مضجعه، وهو يريد أن يعرف حقيقة أمر ذلك الرجل الميت، وحاول مرارًا أن يقصد ذلك الحي الذي التقطه منه عسى أن يعثر على بصيص أمل يقربه من الحقيقة، إلى أن عثر بعد فترة على عجوز هرم على عكازين كان يعرف المتوفى لأن النعال ساعده ذات يوم ماطر بارد للوصول إلى بيته، وأسرّ إليه أنه يسكن في مكان قريب من حيّه فدلّه عليه، وكان الحي في الطرف البعيد من اسطنبول، فقصد السلطان المكان وهو متنكر أيضًا وسأل أهل الحي عن بيت نعال الخيول فدلوه عليه؛ طرق الباب ففتحت له امرأة، وقالت له بعد أن ألقى السلام: لقد توفي زوجي، أليس كذلك؟ فقال: بلى، وجلس ينظر في زوايا الغرفة الصغيرة التي تقطنها مع أولادها، فتعجب السلطان، وقال: لماذا أنتم على هذه الحال من الفقر وقد علمت أن زوجك المرحوم كان يجني مالًا كثيرًا؟ أجابته المرأة: لقد كان زوجي الصالح يأتي كل يوم بالقليل من المال ما يسد به رمقنا لمعيشة يوم واحد فسألها: زوج صالح؟!! لقد سمعت أنه كان ينصرف من عمله للّهو وشرب الخمور، فتبسّمت، وقالت: لقد كان ينصرف من عمله ويأتي سيرًا على قدميه، فكلما رأى رجلًا من حاملي زجاجات الخمر كان يحاول إقناعه بالعدول عن المحرمات، فيأخذها منه ويدفع له ثمنها ليكسرها ويهدرها، أما بنات الهوى فكان يمسك بيد الواحدة منهن، وينصحها، ويجعلها تعدل عن فعلها للحرام، ويوصلها إلى بيتها بعد أن يدفع لها المال، وكنت أنصحه دائمًا أن ينقل عمله إلى حيّنا فيقول: وهل في حينا من يملك قوت يومه كي ينفق على حماره أو بغله؟! قلت له مرة: ماذا لو حانت ساعتك وتوفيت في ذلك الحي البعيد حيث لا أحد يعرف أهلك أو بيتك؟ فرد عليّ: إن الله معنا، والسلطان بيازيد سيتولى كل شيء بإذن الله، وها أنت السلطان بيازيد عندنا.

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا ... مني وما سمعوا من صالح دفنوا

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وهذا أبو دجانة رضي الله عنه: «**دُخِلَ عَلَى أَبِي دُجَانَةَ وَهُوَ مَرِيضٌ وَكَانَ وَجْهُهُ يَتَهَلَّلُ فَقِيلَ لَهُ: مَا لِوَجْهِكَ يَتَهَلَّلُ؟ فَقَالَ: مَا مِنْ عَمَلِي شَيْءٌ أَوْثَقُ عِنْدِي مِنَ اثْنَتَيْنِ؛ أَمَّا إِحْدَاهُمَا: فَكُنْتُ لا أَتَكَلَّمُ فِيمَا لا يَعْنِينِي، وَأَمَّا الأُخْرَى: فَكَانَ قَلْبِي لِلْمُسْلِمِينَ سَلِيمًا**»[1].

قال بكر بن عبد الله المزني: «**إِيَّاكَ مِنْ كَلَامٍ مَا إِنْ أَصَبْتَ فِيهِ لَمْ تُؤْجَرْ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ وَزَرْتَ، وَذَلِكَ سُوءُ الظَّنِّ بِأَخِيكَ**»[2].

«**كَانَ مَعْرُوفٌ الْكَرْخِيُّ عَلَى الدَّجْلَةِ وَنَحْنُ مَعَهُ إِذْ مَرَّ بِهَا أَقْوَامٌ أَحْدَاثٌ فِي زورق يُغَنُّونَ وَيَضْرِبُونَ بِالدُّفِّ، فَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا مَحْفُوظٍ، أَمَا تَرَى هَؤُلَاءِ فِي هَذَا الْبَحْرِ يَعْصُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ: ادْعُ اللهَ عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَرَفَعَ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: إِلَهِي وَسَيِّدِي، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُفَرِّحَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا فَرَّحْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ لَهُ**

[1] الطبقات الكبرى (٤٢٠/٣)، للحافظ ابن سعد رحمه الله.

[2] الطبقات الكبرى (١٥٧/٧)، للحافظ ابن سعد رحمه الله.

أَصْحَابُهُ: إِنَّا سَأَلْنَاكَ أَنْ تَدْعُوَ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ نَسْأَلْكَ أَنْ تَدْعُوَ لَهُمْ، قَالَ: إِذَا فَرَّحَهُمْ فِي الْآخِرَةِ تَابَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَضُرَّكُمْ شَيْءٌ»[1].

قال السري السقطي، وكان أوحد زمانه في الورع وعلوم التوحيد: «**مُنْذُ ثَلَاثِينَ سنة أَنا فِي الاسْتِغْفَار من قولي مرّةً الْحَمد لله، قيل لَهُ: وَكَيف ذَلِك؟ قَالَ: وَقع بِبَغْدَاد حريق، فاستقبلني وَاحِد، وَقَالَ: نجا حانوتك، فقلتُ: الْحَمد لله، فَأَنا نادم من ذَلِكَ الْوَقْت حَيْثُ أردْتُ لنَفْسي خيرا من دون النَّاس**»[2].

وَرُوِيَ عَنِ السَّرِيِّ بْنِ مُغَلِّسٍ السَّقَطِيِّ أَنَّ: «**لِصًّا دَخَلَ بَيْتَ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ فَمَا وَجَدَ شَيْئًا، فَجَاءَ لِيَخْرُجَ فَنَادَاهُ مَالِكٌ: سَلامٌ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ: وعليكم السَّلامُ، قَالَ: مَا حَصَلَ لَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا فَتَرْغَبُ فِي شَيْءٍ مِنَ الآخِرَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تَوَضَّأْ مِنْ هَذَا الْمِرْكَنِ وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ: يَا سَيِّدِي، أَجْلِسُ إِلَى الصُّبْحِ؟ قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ مَالِكٌ إِلَى الْمَسْجِدِ قَالَ أَصْحَابُهُ: مَن هَذَا مَعَكَ؟ قَالَ: جَاءَ يَسْرِقُنَا فَسَرَقْنَاهُ**»[3].

ربِّ صلِّ وسلِّم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمدُ لله رب العالمين.

من أراد مشاهدة الخطب فليتابعنا على موقع جمعية الترتيل: al-tarteel.com

---

[1] شعب الإيمان (٦٩/٩)، للإمام البيهقي رحمه الله.

[2] الرسالة القشيرية (٤٦/١)، للإمام القشيري رحمه الله.

[3] تاريخ الإسلام (٤٨٨/٣)، للإمام الذهبي رحمه الله.